

العنوان الرابع عشر

الخوافز

للخوافز أثر بارز في النفس البشرية، فهي بطبيعتها تحب أن تُحمل على فعل الخير، وأن تُدفع إليه، بشتى الخوافز، كالثناء مثلاً الذي هو مطلب للنفس، وإن كانت مقصّرة

يهوى الثناء مقصّر ومبرّر حب الثناء طبيعة الإنسان

عني القرآن الكريم بالخوافز، حتى كأنها عنوان له، فلطالما أعقب التوجيهات القرآنية خوافز دنيوية، وأخروية، تشوّق إليها النفس السوءية، وكذا دأب السنة النبوية. إن المؤسسات وهي تسعى إلى التجويد، والتميز بحاجة ماسة إلى رواد، رواد بلا قلق، يتقدمون بنسق، كما قيل، حتى يتاح للرائد منهم، أن يُعطي كله، لما هو بصدده فيُحسن، ويُجوّد، ويُبدع، دونما صوارف، أو شواغل.



لقد قيل قديماً عن العلم إن أعطيته كلك ، أعطاك بعضه ، فكيف إذا أضفت إليه التخطيط ، والعمل ، والمتابعة ، ثم أعطيت هؤلاء جميعاً - وهم شركاء متشاكسون - بعضك. فلا ينتظر ، والحالة هذه التجويد ، الذي نريد.

حين قيل للإمام الشافعي ، نفذ الطحين من البيت ، نسي مسائل عدة كان يفكر فيها ، وكان يُرجى منها خير للأمة. ولا عجب ، فإن الجائع ينسى في ساعة جوعه ، أن له آذاناً ، ولساناً ويتذكر فقط أن له فماً وأسناناً ، كما قال طاغور ، ليس للبطن الجائع آذان ، وإنما نعني بالجوع في هذا المقام ، صعوبة توفير احتياجات العصر بأنواعها ، من ضروريات ، وكماليات.

لله در الإمام الرباني ، عبد الله بن المبارك ، العالم التاجر الغني ، فقد تفتن إلى هذه المعاني ، في وقت مبكر ، فهو الذي توفي سنة (١٨١هـ) ، لقد قال هذا العالم ، التاجر ، لولا فلان ، وفلان ما أئجرت ، وكان يبعث بالمال إلى عدد من العلماء المتفرغين لطلب العلم وتعليمه^(١).



(١) ابن رجب ، الآداب الشرعية ، ج ١ ، ص ٢٤٧

لقد بدا للمتأمل أنه قلّ ما اجتمع لشخص واحد، وصفا الغنى والعلم، حتى إذا ما اجتمعا في شخص، وهذا نادر ذكر بهما، وتميز من بين مئات الأقران مثل ابن المبارك. لم تكن هذه الظاهرة المتوارثة، لتغيب عن أفهام العلماء، فقد قال قائلهم في تقريرها:

قلت للفقير أين أنت مقيم قال في عمام الفقهاء

إن بيني وبينهم لإخاء وعزیزٌ عليّ ترك الإخاء

والمراد بالفقهاء هنا العلماء بعامة، في شتى التخصصات، باعتبار أن الفقه لغةً، هو العلم بعامة.

يحتاج رواد الأمة صانعو حضارتها، إلى التخفف من الهموم اليومية، تخفف يصاحبه عفاف، لأن العفاف زينة العلماء^(٢)، كان يوفره لهم الأمراء، والأغنياء بطرق تحفظ هبة هذا العفاف، ومن أبرزها الأوقاف، وكثير من هذا كائن، والحمد لله. ليس يخفى أن الحوافز متعددة، متنوعة، فمنها ما هو مادي، ومنها ما هو معنوي، وأحسب أنها جميعها ذات أثر بيّن، وقد تفاوتت في تأثيرها، ووزنها، في ضوء اعتبارات تحكمها ظروف، قد تتغير، وتبدل.



(٢) محمد الراشد، عبير الوعي، ص ٨

قامت شركة يابانية ، كبرى باستطلاع آراء موظفيها ، بشأن الخوافز ، الأكثر أثراً وإيجابيةً ، في حياتهم المهنية ، فوجئ القائمون على هذا الاستطلاع أن ٦٨٪ من الموظفين ، اختاروا حافز التقدير من قبل المسؤولين ، في المرتبة الأولى ، في حين ذكر ٢٥٪ منهم ، أن الخوافز المادية هي الأكثر أثراً فيهم.

قد تختلف هذه النسب ، من مكان لآخر ، وربما تختلف في المكان نفسه ، حين تتغير الظروف ، فقد تهبُّ مثلاً عاصفةٌ مالية فتقصف ، وتنسف ، والناس على أية حال تجاه الخوافز ألوان ، وأجناس من حيث احتياجهم إليها وأثرها فيهم.

فتى يشتري حُسن الثناء بماله إذا السنة الشهباء ، أعوزها القطر

الخوافز أياً كان نوعها ، تمنح الرضا ، وتعزز الانتماء ، وتسهم في المزيد من العطاء ، والنماء ، وهذه كلها معالم لا يتصور حصول الجودة التي يطمح إليها صاحب القرار بدونها.

لقد قيل إن النجاح سُلَّم ، لا يمكن تسلُّقه بالأيدي في الجيوب وقد يحمل هذا القول ، على أن النجاح مرتبط بالخوافز ، وهو ما يعنى أن يخرج صاحب القرار ، يده من جيبه ليدفع بها الخوافز ، إلى العاملين معه.



لعل الأوضح من هذا، ذاك التناسب العجيب، والنسب القريب، بين كلٍّ من كلمات الجواد، والجود، والجودة، فإن أصلها اللغوي الواحد، جعل بينها تلازماً، لا ينفك، فشد الرحال إلى الجودة، يحتاج إلى جواد في همته وكرمه، ولا بد أن يجود المسؤول بماله، إن أراد أن يحقق مع فريقه الجودة، بكل مظاهرها. فالجودة تساوي (جواد + جود).

قد يقوم الحماس الداخلي، مقام الخوافز في مواطن كثيرة، بيد أنه ليس من الحكمة تجاهل أثر الخوافز، بخاصة إذا ضعف الحماس، والشاعر الصنوبري قالها بكل صراحة، ودعا إلى تحمل تبعاتها السيئة حين أنشد:

إن المعلم والطبيب كلاهما لا يخلصان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واقنع بجهلك إن جفوت معلما

على الرغم مما قد يُعد سوء ظن، من الشاعر بهذين الصنفين، الجليلين من البشر، - لأنهم شموع تحترق لتضيء الطريق، وأحسب أنهم هم الذين عناهم الشاعر، المبدع عمر أبو ريشة وهو يقول، على لسانهم

تقضي البطولة أن نمد جسومنا جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

تهبج الخوافز حتمية،
إنها منهج الحماس الداخلي

وعلى الرغم من هذا إلا أننا نحترس، فنقول إن الإنسان ابن بيئته، يؤثر فيها، يتأثر بها أكثر، مما يعني أن حكم الصنوبري المتقدم واقعي، وله حظ من النظر.

لقد قيل إن الوظيفة غيورة كالزوجة، لا تتيح لمن يتلبس بها، أن يتجه إلى غيرها لتحسين أوضاعه المالية، بخاصة في عصر تزحف فيه كالسلحفاة الرواتب، وتقفز فيه تكاليف الحياة، كالأرانب.

في هذا الزمن، الذي كثرت فيه الصعاب، وطغى فيه بند الاحتساب، يسعى بعض الأساتذة - على سبيل التمثيل لا التأصيل - إلى زيادة ما في الحساب، من خلال التنوع في طرق الاكتساب.

يلجأ بعضهم إلى سوق الأسهم، للاكتتاب، فتلحق به خسارة شديدة المראה، فيصاب بالاكنتاب. فيضطر إلى البحث عن ساعات زائدات عن النصاب، لا يسأل عن وقتها، ولا عمّا فيها من طلاب.

في ضوء هذه الأحوال، تصبح مفردات التطوير، والجودة، عند بعض الأفراد مفردات أعجمية، لا معنى لها، ويصبح الاعتذار عن اللجان، والاجتماعات ظاهرة لا يجدي معها عتاب، أو خطاب ولسان الحال يقول يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.



يتعزز وجود ظاهرة الإعراض هذه حين يُعطى أعضاء بعض اللجان، مكافآت مادية، ولا ترى لجان أخرى مقابل عملها، إلا الشكر إن حصل، ويُطلب منها بلسان الحال، أو المقال، أن تحتسب عملها، وتدخره ليوم الحساب متجاهلة أن الاحتساب لا يمنع الاكتساب، وعندها يُردد بعض أعضاء هذه اللجان، مستدبراً، ومستتكراً، قول الشاعر :

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا يحاس الخوس، يدعى جندبُ

إن شعوراً كهذا كفيلاً بأن يحاصر الأمل ويطفئ جذوة الحماس إلى العمل بخاصة إذا ارتقى إلى مستوى الظاهرة بيد أن ما قيل على وجاهته لا يأذن بتجاهل الوجه الآخر، لهذا الموضوع، والذي يتمثل في المبالغة بأمر الحوافز، فقد يقال إن بعض الأعمال، والتكاليف، التي تربط بالحوافز المالية، هي جزء من العمل المنوط بهذا الشخص، أو ذاك، لا تبرأ الذمة إلا بالقيام به.

ثم أليست المؤسسات تأخذ موضوع الحوافز، بعين الاعتبار في ضوء روى خاصة بها، ولا تتجاهلها كما يتوهم، ثم أليس يحسن أن يهمس في آذان أعضاء اللجان بقول الحكيم بيدبا إن العجل إذا بالغ في مصّ ضرع أمه، نطحته.

**إن العجل إذا بالغ في
مصّ ضرع أمه، نطحته**

تقتضي الأمانة، حين يأخذ المرء، لطائفه أن يأخذ منها أيضاً، وهذا الأخذ، مأخوذ، من هدايات توجيه نبوي كريم قال فيه النبي ﷺ (ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي يصل من قطعه) ^(٣). إن فعل الخير مأمور به، من حيث هو، دونما اعتبار لدافع، أو مانع، وكان الحديث يومئذ، إلى أن المرء لا يمدح، إن قابل عطاءً بأخذ، وإنما الذي يُحمد له أن يقابل القطع بالوصل، والمنع بالعطاء، احتساباً عند الله تعالى، ونعم الاحتساب. كان شعار الأنبياء الكرام في رحلة الإنسانية الطويلة، ما ذكره الله، تعالى عنهم ﴿يَنْقُومُوا لَآئِنَ لَّكُمْ عَلَيْهِ جَزَاءٌ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٥١) سورة هود (الآية: ٥١)، وهو الشعار نفسه، الذي يحسن بالرواد استحضاره - ما أمكنهم ذلك - ساعة البناء، والعطاء، وهذا الذي كان، وطالما أعطى الرواد، ولم يأخذوا في دنياهم، لكن التاريخ لا ينسى، ولا يضيّع الحقوق.

لقد حفظ التاريخ سير هؤلاء العظماء، النبلاء، حين سجل إنجازاتهم، وأعلى من شأنهم، حتى صار كثير من الناس، يكرر أسماء بعض الرواد المصلحين، أكثر مما يُردد أسماء أقرب الناس إليه، من مثل أبيه، وأخيه. وقد وجد في تراثنا عشرات الكتب، التي تعنى بسير هؤلاء النبلاء، الذين أصبحوا علامات فارقة في تاريخنا، وعلى كل لسان، وتوارى الدرهم، وأصحابه في عالم النسيان.

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها



(٣) أخرجه الترمذي في سنته، باب ما جاء في صلة الرحم، حديث رقم ١٩٨، وقال عنه حديث حسن صحيح